مكتبتا الإسكندرية وبرجاموم :
أشهـر مكتبات الحقبة الهيلينستية(*)

عرض وتحليل
محمد عوض العايدى

لم تكن مكتبة الإسكندرية القديمة مجرد مكتبة ، أو حتى أول مكتبة عامة فى التاريخ ، بل كانت أيضاً معهداً للبحث ومتحفاً وخزانة ضخمة لجمع وحفظ وصيانة ما يزيد على ٧٥٠ ألف مخطوط قبل احتراقها مباشرة . وقد تم احتراق حوالى ٤٠٠ ألف مخطوط فى أثناء الحريق الشهير حتى تم تعويضها بحوالى ٢٠٠ ألف من مكتبة برجاموم .

وكان بإمكان رواد المكتبة القديمة خلال ثمانية قرون أن يشاهدوا إقليدس السكندرى وسقراط وأفلاطون يتجولون فى أروقة المكتبة ، كما كانوا يجتمعون فيها للبحث والمناظرة والدراسة . ولهذا أصبحت الإسكندرية مركز إشعاع حضارى وثقافى فى العالم القديم اختلطت فيه الحضارة المصرية بمثيلتها اليونانية وأغلب حضارات الشرق . وكان من أبرز أساطين وعلماء مكتبة الإسكندرية القديمة : أريستارخوس أول من قال بدوران الأرض حول الشمس ، وهيبارخوس أول من حسب طول السنة الشمسية بدقة (٦ دقائق) ، وإيراتستنيس أول من حسب محيط الكرة الأرضية ، وإقليدس مؤسس علم الهندسة ، وأرشميدس الذى اخترع الطنبور أثناء زيارته لمصر ، وأيضاً كاليماخوس أول من وضع فهارس للكتب بالموضوع والمؤلف .

إن أخطر ما تعرضت له المكتبة القديمة هو ذلك الحريق الشهير الذى دارت حوله قصص وروايات كثيرة ، فبعض المؤرخين يقول أنه فى عام ٤٧ قبل الميلاد ثارت الإسكندرية على يوليوس قيصر انتصاراً لبطليموس الثالث عشر وحاصره الأهالى فى قصر الملوك فأضرم قيصر فيه النار لينجو من الثورة ، وقيل فى بعض المصادر الأخرى أن الحريق أضرمها الثوار ليهلكوا يوليوس قيصر فامتدت النيران وتطاير شررها والتهمت المكتبة التى كانت تشغل جزءاً كبيراً من القصر . وعلى الرغم من هذا الغموض المحير الذى يكتنف حريق مكتبة

(*) سعد بن عبد الله الضبيعان . مكتبتا الإسكندرية وبرجاموم : أشهر مكتبات الحقبة الهيلينستية .- الرياض : دار المريخ ، ٢٠٠٠ . - ٩٥ ص .

الإسكندرية ، إلا أن هناك ثلاثة آراء فى هذا الصدد: أولها يقول أن يوليوس قيصر هو الذى أحرقها - كما أوردنا فى السطور السابقة ، وإن كان هذا الرأى يجد من ينفيه على اعتبار أن بعض الرحالة الذين جاءوا إلى الإسكندرية بعد رحيل يوليوس قيصر عنها أكدوا أنهم رأوا المكتبة وأنها كانت موجودة بعد رحيله . أما الرأى الثانى فيقول أن العرب هم الذين أحرقوها عندما فتحوا مصر بقيادة عمرو بن العاص ، وهذا الرأى أيضاً مردود عليه بأن العرب كانوا يشجعون الثقافة ويحثون على طلب العلم كما أمرهم الإسلام فليس من المنطقى أن يقدموا على مثل هذا العمل . أما الرأى الأخير - وهو الأرجح - أن التتار هم الذين أحرقوا المكتبة حينما جاءوا إلى مصر بقيادة جنكيزخان .

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة كانت قد قدمت للعالم عصارة عقول البشرية واستطاعت أن تجعل من تيارات الحضارات واقعاً ملموساً وأن تمزج بين ثقافات الرومان والفرس وثقافات غرب آسيا وشرقها وثقافة ما بين النهرين في بوتقة واحدة، وإذا كانت هذه الإنجازات القديمة قد اندثرت مع المكتبة فإن الإرادة المصرية متمثلة فى قيادتها الحكيمة بقيادة الرئيس حسنى مبارك ومن خلفه السيدة الفاضلة حرمه قد استطاعت أن تعيد إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة فى صورة عصرية جديدة ومتطورة تحاكى أعظم مكتبات العالم فى واشنطون ولندن وباريس وأن تضع للمكتبة الجديدة أهدافاً جليلة لتحقق إنجازات جديدة : **أولاً** : أن تكون المكتبة نافذة للعالم على الحضارة المصرية بحقبها المختلفة ، **ثانياً** : أن تكون المكتبة نافذة مصر على العالم بمعنى أن تكون المكتبة هى الجهة الأولى التى يتوجه إليها طلاب العلم فى مصر للتعرف على ثقافات وعلوم العالم الخارجى **ثالثاً** : أن تكون المكتبة هى مكتبة العصر الرقمى الجديد وأن تتعامل مع الثروة المعلوماتية الهائلة عن طريق استخدام أحدث التكنولوجيات ووسائل الإتصال المتقدمة لتحقيق الاستثمار الأمثل لمواردها البشرية، وأخيراً **رابعاً** : أن تكون المكتبة مركزاً للتعلم والحوار وأن تكون مركزاً للإشعاع الفكرى فى العلوم والفنون والأدب والثقافة وذلك لتشجيع الحوار بين الحضارات وليس التصادم معها .

إن مكتبة الإسكندرية ليست مجرد مكتبة عامة ذات طابع عالمى ، أو مجرد مكان عبقرى ، إنما هى نموذج كامل متكامل لتيار عالمى منذ فجرت مصر حركة التثقيف العام وعلمت الدنيا بأكملها الكتابة والقراءة وتسجيل الأحداث لتتعلم من ماضيها وتعيش حاضرها وتخطط لمستقبلها .

هذه هى مكتبة الإسكندرية ، أما مكتبة برجاموم (أو برجامون) فهى تقع فى مملكة برجاموم أقصى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بعد ١٤ ميلا من بحر إيجه، وتعاقب على حكمها ملوك الأسرة الأتالية ، وقد حظيت برجاموم بمكانة دولية مرموقة وذلك نتيجة لموقعها الجغرافى ومنتجاتها المعدنية والزراعية، فضلا عن الصناعات النسيجية والجلدية . أما عن المكتبة نفسها فقد عدها الأتاليون أهم المنشآت فى مدينة برجاموم ، واختلفت الآراء حول مؤسس المكتبة ، فمنهم من يقول أنه أتالوس الأول ومنهم من يقول أنه يومينيس الثانى ، وعلى الأرجح أن الأول هو الذى أنشأها وأن الثانى هوالذى قام على تطويرها وتنميتها . ولم

تكن مكتبة برجاموم مكتبة بالمعنى التقليدى فحسب ، بل كانت مثل مكتبة الإسكندرية القديمة مركزاً يعنى البحث والدراسة وكان بها عدد لابأس به من العلماء الكبار ممن تبوأوا رئاسة مدرسة برجاموم ومكتبتها أو عملوا بها ويأتى على رأسهم كراتس المالوسى ونيكاندر وموسوس الأفسوسى وبيتون وغيرهم . وقد تأثرت مكتبة برجاموم بشكل كبير بمكتبة الإسكندرية القديمة التى كانت تعد أشهر مكتبة فى العالم القديم وترسمت خطاها وسارت على نهجها وطريقة عملها .

والكتاب الذى بين أيدينا «مكتبتا الإسكندرية وبرجاموم» يقع فى فصلين (٩٥ صفحة) يتناول فيه المؤلف مكتبة الإسكندرية فى **فصله الأول** بينما يعالج الفصل الثانى مكتبة برجاموم . ويقدم المؤلف فى الفقرة الأولى من الفصل تعريفا لمكتبة الإسكندرية الرئيسية أو الموسيوم فى حى البروكيوم، والمكتبة الفرعية أو السيرابيوم فى الحى الوطنى ، كما يشير إلى المكانة العظيمة التى حظيت بها مكتبة الإسكندرية والأهتمام الكبير من المؤرخين والباحثين . ويتناول فى الفقرة الثانية إنشاء مدينة الإسكندرية وأن الذى أنشأها هو الإسكندر الأكبر بعد فتحه لمصر عام ٣٣٢ ق.م. ، ثم يقدم تعريفا بتخطيط المدينة ومعالمها وسكانها من المواطنين والمقدونيين والإغريق واليهود والمصريين . وفى الفقرة الثالثة يتناول الكتاب الأكاديمية أو المتحف (الموسيوم) وآراء المؤرخين فيما يتعلق بمؤسس الأكاديمية هل هو بطليموس الأول (سوتر) أو ابنه بطليموس الثانى (فيلادلفوس) ، كما يتناول الأنشطة والعلوم التى كانت تدرس بها مثل الآداب اليونانية والطب والجغرافيا وغيرها . كما يقدم الكتاب فى نفس الفقرة تعريفا بالمكتبة الرئيسية (البروكيوم) وأنها تعتبر جزءاً مهما من الأكاديمية واعتبارها القلب النابض لها وأنه قد تعاقب عليها مجموعة من المكتبيين الأفذاذ مثل ديمتريوس وزينودوتس وكاليماخوس . كما يقدم تعريفا بالمكتبة الفرعية (السيرابيوم) وأنها أنشئت بعد خمسين عاما من البروكيوم وزادت أهميتها على مر السنين بعد احتراق المكتبة الكبرى . وتتناول الفقرة الرابعة من الفصل الأول مصادر اقتناء مجموعات المكتبة وأن ملوك البطالمة قد عملوا على إثراء المكتبة من شتى بقاع العالم وباللغات السائدة فى ذلك الوقت وخاصة مناطق البحر المتوسط . وكان يتم مصادرة الكتب من المسافرين وإيداعها بالمكتبة كما كان يتم إرسال مندوبين لشراء الكتب النادرة والأعمال الجيدة من آسيا واليونان . كما كان يتم الاقتناء عن طريق النسخ والترجمة . وفى الفقرة الخامسة يستعرض المؤلف مقتنيات المكتبة وأن الروايات تقول أنها وصلت فى نهاية حكم بطليموس الثانى إلى ما بين ٥٠٠-٧٠٠ ألف لفافة وأن مجموعات المكتبة الفرعية وصلت إلى ٤٢ ألف لفافة . ويتناول المؤلف فى الفقرة السادسة العلاقة بين مكتبة الإسكندرية ومكتبة برجاموم وأن هذه العلاقة تراوحت بين الشد والجذب وأن الملوك الأتاليين كانوا يحلمون بأن تصبح مكتبتهم في مصاف مكتبة الإسكندرية التى سبقت مكتبتهم بحوالى قرن من الزمان ، وأشار المؤلف إلى قصة إهداء مارك أنطونيو لحوالى ٢٠٠ ألف مجلد من مكتبة برجاموم لكليوباترا كتعويض لها عن الكتب التى احترقت فى مكتبة الاسكندرية عام ٤٧ ق.م. ويتناول الكتاب فى فقراته السابعة والثامنة والتاسعة

مصير المكتبة والحريق الذى أتى على مقتنياتها والإدعاء بأن العرب بقيادة عمرو بن العاص هم الذين أحرقوها ، كذلك يقدم المؤلف تفنيداً لهذا الإدعاء . ويرى المؤلف أن مكتبة البروكيوم قد طالها الحريق ولكن يبدو أن التدمير لم يكن كاملاً، ويبدو أن الحريق لم يصل إلى المكتبة الفرعية وأنها لم تتأثر بالحريق لوجودها فى معبد السيرابيوم الحصين . ويستعرض المؤلف فى هذه الفقرات آراء المؤرخين حول مسئولية العرب عن الحريق ما بين مؤيد ومعارض ويخلص إلى أن المسلمين الذين يحثهم دينهم على طلب العلم وطلبه حتى ولو فى الصين كما يحثهم على القراءة لا يمكن أن يقوموا بمثل هذا العمل .

أما **الفصل الثاني** من الكتاب فيتناول مكتبة برجاموم . ويسبق الحديث عن المكتبة الحديث عن مملكة برجاموم نفسها وموقعها وأنها تقع فى أقصى الشمال الغربى من آسيا الصغرى على بعد ١٤ ميلاً من بحر إيجه وتعاقب على حكمها عدد من ملوك الأسرة الأتالية ابتداء بفيلاتورس (٢٨٠-٢٦٣ ق.م.) وإنتهاء بأتالوس الثالث (١٣٨-١٣٣ق.م.)، كما تناول المؤلف مكانة مملكة برجاموم الدولية وأنها حظيت بمكانة مرموقة نتيجة لموقعها المهم وما حققته من تطور بسبب ثرواتها المعدنية والزراعية وازدهار الصناعات النسيجية والجلدية بها . ثم يتناول المؤلف فى الفقرة الرابعة من الفصل الثانى مكتبة برجاموم وأهميتها وموقعها ومؤسسها وأن الفضل يعود إلى أتالوس الأول فى تأسيسها وإلى يومينيس فى تطويرها وتنمية مجموعاتها وإنشاء بناء فخم خاصاً بها ، كما تتناول الفقرة نفسها طرق التزويد المختلفة وطرق تنظيم المجموعات . أما الفقرات الخامسة والسادسة فتتناول حجم المقتنيات وطبيعتها والتى وصلت إلى حوالى ٢٠٠ ألف لفافة . وفى الفقرة السابعة يستعرض المؤلف أسماء العلماء الذين قاموا على هذه المكتبة وأنشطتهم وأنهم كانوا ما بين سبعين ومائة عالم فى مختلف التخصصات وعلى رأس هؤلاء العلماء كراتس المالوسى ونيكاند وموسوس الأفسوسى وبيتون وأبولونيس . وتتناول الفقرة الثامنة تفوق مملكة برجاموم فى صناعة الرق أو البرشمان الذى يستخرج من جلود صغار العجول وانتشار استخدامه كوسيط جديد للكتابة عليه وتميزه على البردى فى هذا المجال . وفى الفقرة التاسعة يتناول المؤلف علاقة مكتبة برجاموم بالمكتبات الأخرى وتأثرها بها وتأثيرها فيها وخاصة مكتبة الإسكندرية . ثم تأتى نهاية مكتبة برجاموم فى الفقرة العاشرة من هذا الفصل . ويرى بعض المؤرخين أن المكتبة استمرت ما يقارب مائة وخمسين عاماً وأن من أسباب نهايتها كان إهداء مارك أنطونيو لكليوباترا حوالى ٢٠٠ ألف لفافة تعويضاً لها عن خسائر الحريق الذى وقع فى مكتبة الإسكندرية ، كما تشير بعض المصادر إلى أن بعض الحكام الرومان قد نقلوا كثيراً من محتويات المكتبة إلى روما ، ويذيل المؤلف الفصل والكتاب ببعض المقترحات .